Arabic Islamic Architecture

Its Presence & Setback - Influence & Underlie

الملف

العمارة العربية الإسلامية

حضورها وانحسارها

تأثيرها وتأثرها

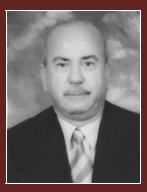

أ.د. بديع العابد

رئيس الجمعية الأردنية لتاريخ العلوم

عميد كلية الهندسة (سابقًا) – جامعة الإسراء

عمان – المملكة الأردنية الهاشمية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بديع العابد، العمارة العربية الإسلامية: حضورها وانحسارها، تأثيرها وتأثرها.- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن عشر؛ ديسمبر ٢٠١٢. ص ١٤٧ – ١٥٨.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

ملخص

يهدف هذا البحث إلى التعريف بحضور العمارة العربية الإسلامية، وبيان جذورها التاريخية على الرغم من تغييب فكرها، واستبدال أطرها النظرية ومنهجيات تصميمها. كما يهدف إلى توضيح تأثير العمارة العربية الإسلامية على العمارة في إسبانيا وايطاليا وباقي أوروبا، وبيان تأثير التخطيط العمراني والنظم الإدارية في المدن العربية على المدن الأوروبية، كما يهدف البحث إلى توضيح حقيقة علمية وتاريخية وهي أن جذور العمارة الغوطية عربية إسلامية. كما يهدف البحث إلى بيان تأثير الإسهام الفكري المعماري العربي الإسلامي على المعماريين الأوروبيين في القرنين (١٥-١٦) الميلادية، أو ما يُعرف في أوروبا بعصر النهضة. ولتحقيق ذلك سيعرض البحث إلى لمحة تاريخية عن جذور العمارة العربية الإسلامية ويبين كيف أثرت هذه الجذور على العمارتين اليونانية والفارسية. ثم يبين البحث أن العمارة العربية الإسلامية مورست في حيز الوعي، ضمن أطر نظرية، وبأرقى منهجيات التصميم المعماري، وهي منهجية الأحكام. ثم يعرض البحث لتأثير العمارة العربي الإسلامية على العمارة الأوروبية، معتمدًا في ذلك على المصادر الغربية التي اعترفت بهذا التأثير فكرًا وممارسةً. ثم يعرض البحث للأوضاع التي آلت إليها العمارة العربية الإسلامية نتيجة الأوضاع السياسية للعالم العربي في القرنين التاسع عشر والعشرين. ثم يبين انحسارها وتغييبها واستبدال فكرها بنظريات العمارة الغربية. ثم يختم البحث بالتنويه بدور معاهد وجمعيات تاريخ العلوم الواعد لإبراز منجزات الحضارة العربية الإسلامية المعمارية والعلمية وإعادة توظيفها في مناهج الدراسة الجامعية.

مقدمة

في خضم الصراع الحضاري بيننا وبين الغرب كانت العمارة العربية الإسلامية إحدى ضحايا هذا الصراع. فقد تم استئصالها من بيئتها الحضارية، وبوعد بينها وبين جذورها التاريخية، وأفرغت من قيمها الاجتماعية، وشكك في أصالتها، ووصمت بالتقليد تارة، وبالتبعية تارة أخرى، وغيب فكرها، واستبدلت أطرها النظرية، واختصرت منهجيات ممارستها من أرقى منهجيات التصميم وهي منهجية الأحكام إلى أدنى منهجياته وهي منهجية التجربة والخطأ، ثم منهجية التكرار. والأخطر في هذا الصراع هو خلق أجيال من أساتذة الجامعات والمعماريين الممارسين العرب والمسلمين تنكروا لأنفسهم ولحضارتهم، أخذوا بظواهر الحضارة الغربية، فجهلوا فكرهم المعماري وعطلوه، واتخذوا من جهله وكراهته مذهبًا يقرون به، ويدعون إليه. فانحسر بذلك تأثير العمارة العربية الإسلامية وازداد تأثرها بالعمارة الغربية حتى وصل إلى درجة الاستبدال.

الأهداف والمنهجية

يهدف هذا البحث إلى التعريف بحضور العمارة العربية الإسلامية، وبيان جذورها التاريخية على الرغم من تغييب فكرها، واستبدال أطرها النظرية ومنهجيات تصميمها. كما يهدف إلى توضيح تأثير العمارة العربية الإسلامية على العمارة في إسبانيا وايطاليا وباقي أوروبا، وبيان تأثير التخطيط العمراني والنظم الإدارية في المدن العربية على المدن الأوروبية، كما يهدف البحث إلى توضيح حقيقة علمية وتاريخية وهي أن جذور العمارة الغوطية عربية إسلامية. كما يهدف البحث إلى بيان تأثير الإسهام الفكري المعماري العربي الإسلامي على المعماريين الأوروبيين في القرنين (١٥-١٦) الميلادية، أو ما يعرف في أوروبا بعصر النهضة، كتأثير نظريات الحسن ابن الهيثم (٣٥٤-٤٣٢هـ/٩٦٥-١٠٤١م) في الإبصار، والإدراك، وتكوين الصور، على توسكانلي Toscanelli (١٤٢٤م) وبرونليشي Brunelleshi (١٣٧٧-١٤٤٦م). وتأثير ابن قتيبة (٢١٣-٢٧٦هـ/٨٢٨-٨٨٩)، وإخوان الصفا (٣٩٠-٤٥٦هـ/١٠٠٠-١٠٦٤م)، وعبد اللطيف البغدادي (٥٥٧-٦٢٩هـ/١١٦١-١٢٣١م)، على ليون باتيستا البرتي Leon Batista Alberti (١٤٠٤-١٤٧٢م) واضع كتاب فن البناء Building On The Art Of.

ولتحقيق ذلك سيعرض البحث إلى لمحة تاريخية عن جذور العمارة العربية الإسلامية ويبين كيف أثرت هذه الجذور على العمارتين اليونانية والفارسية. ثم يبين البحث كيف أثرت هذه الجذور في الحضارة الإسلامية لتشكل العمارة العربية الإسلامية، وسيبين البحث أن العمارة العربية الإسلامية مورست في حيز الوعي، ضمن أطر نظرية، وبأرقى منهجيات التصميم المعماري، وهي منهجية الأحكام. ثم يعرض البحث لتأثير العمارة العربي الإسلامية على العمارة الأوروبية، معتمدًا في ذلك على المصادر الغربية التي اعترفت بهذا التأثير فكرًا وممارسةً. ثم يعرض البحث للأوضاع التي آلت إليها العمارة العربية الإسلامية نتيجة الأوضاع السياسية في القرنين التاسع عشر والعشرين. ثم يبين انحسارها وتغييبها واستبدال فكرها بنظريات العمارة الغربية. وسأبدأ بعرض وتوضيح الجذور التاريخية للعمارة العربية الإسلامية وذلك في محاولة لاستعادة وعينا المستلب وتوظيف فكرنا المعماري المغيب في مناهج الدراسة.

(١) الجـــذور التاريخية للعمارة العربية الإسلامية

من المتعارف عليه تاريخيًا وحضاريًا أن العالم العربي هو مهد الحضارات وأن العمارة كانت وما زالت شاهدًا على رقي حضارات العالم العربي سواء ما يسمى منها بالهلال الخصيب (بلاد الشام والعراق) أو مصر، أو اليمن، أو شمال الحجاز. ولقد مورست مهنة البناء في هذه الحضارات بتقانات بناء مميزة، والأرقى من ذلك أنها مورست ضمن أطر نظرية وقوانين تحكم العمل المعماري. ولما كان العرب هم آخر الأقوام الذين تواجدوا على الأرض العربية، وإن جذورهم التاريخية تمتد إلى العرب البائدة[١] كعاد وثمود، الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم،[٢] حيث وصف الأولى، عاد، بأنه لم يخلق مثلها في البلاد. وأما ثمود فأثارها مازالت قائمة في مدائن صالح شمال الحجاز. وكذلك العمالقة وجرهم وهما القبيلتين العربيتين اللتين شاركتا في إعادة بناء الكعبة المشرفة. وقد أرخ

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

لدورهم المؤرخون العرب، كالمسعودي، والطبري، وابن خلدون. وأيضًا طسم، وجديس، وقد ذكرهم المؤرخون السابقون، كما ورد ذكر عمارتهم ومدينتهم اليمامة (جو) المشهورة بأطامها (حصونها) في شعر النابغة والأعشى وغيرهم. كما تمتد جذور العرب التاريخية إلى العرب العاربة وهم القحطانيون سكان اليمن، الذين تواصلت حضارتهم منذ قحطان بن سام بن نوح حتى ظهور الإسلام. وكانوا وما زالوا أصحاب حضارة راقية، أفرزت عمارة متميزة قبل الإسلام وفي الإسلام.

هذه إذن هي الجذور التاريخية للعمارة العربية الإسلامية التي تواصلت إلى الإسلام من أسلافنا العرب، أما جذورها التاريخية التي تواصلت إلى الإسلام من أسلافنا الساميين، الذين هاجروا من جنوب الجزيرة العربية إلى شمالها (بلاد الشام والعراق)، وهم عرب[٣] بكل المعايير، فهي أظهر حضورًا بآثارها الماثلة إلى يومنا الحاضر، وأخص منها أعمال حاكم لكش، المعماري السومري كوديا[٤] (٢١٤٤- ٢١٢٤ ق.م.)، الذي استعمل الرسومات في إنتاج أعماله المعمارية كما يبين الشكل (رقم -١). وربما لم يسبق كوديا في استعمال الرسومات المعمارية، سوى المعماري والطبيب المصري ايموحتب، الذي بنا هرم زوسر المدرج بالجيزة حوالي سنة ٢٦٣٠ ق.م. واستعمال الرسومات نقطة تأسيسية في تكوين الفكر المعماري، ارتقت بعملية إنتاج العمارة من منهجية التجربة والخطأ إلى منهجية التفكر والتأمل. وهي نقلة نوعية في تطور الفكر المعماري عند الساميين العرب. وربما تكون قد مهدت لنقلة نوعية أخرى أكثر تطورًا وهي قوانين البناء التي وضعها الملك البابلي حمورابي (١٧٤٢- ١٧٩٢ ق.م) في شريعته المشهورة، التي ارتقت بالممارسات المعمارية إلى منهجية الأحكام، وهي أرقى منهجيات التصميم المعماري قاطبة. فالحضارات السامية إذن ارتقت بالفكر المعماري، وأرست منهجيتين عقلانيتين في إنتاج العمارة هما: التفكر والتأمل والأحكام.

بينما نجد أن العمارة الغربية، ابتداءً من اليونان وحتى العمارة الحديثة، في بداية القرن العشرين، لم تمارس عمارتها إلا بمنهجيتي التجربة والخطأ والتكرار. وما ينطبق على الحضارات السامية ينطبق على الحضارة المصرية القديمة، على الرغم من عدم حسم أصولها العرقية،[٥] سواء كانوا ساميين أو خلاف ذلك. لكننا نحن العرب الورثة الحقيقيون لإنجازات الحضارة المصرية القديمة، وكل الحضارات التي نشأت على الأرض العربية. واللافت للنظر أن فنون وعمارة هاتين الحضارتين أصيلة ونابعة من إبداعاتهما[٦] وليس بتأثير حضارات أخرى. وأكثر من ذلك فإن هاتين الحضارتين، أي السامية والمصرية القديمة، هي المصدر[٧] الرئيس للحضارتين اليونانية والفارسية. وإن ما يقال عن المعجزة اليونانية هو كلام غير صحيح، فجميع الشواهد تؤكد تأثير[٨] الحضارتين المصرية القديمة والبابلية على الحضارة اليونانية. وكذلك تأثير الحضارات السامية على الحضارة الفارسية.

استنادًا إلى ما سبق فإن العمارة في الحضارات التي نشأت على الأرض العربية كعمارة حضارات العرب البائدة (عاد وثمود... الخ) "والسامية"، والمصرية القديمة، واليمنية، قد تواصلت بمستويات مختلفة مع العمارة العربية الإسلامية لتصبح جزءًا من مكونها. وهذا يتضح في مواد البناء وتقاناته التي ما زالت مستعملة حتى وقتنا الحاضر، وكذلك في المعالجات البيئية للفراغات المعمارية وفي التفاصيل المعمارية، والزخارف، بدرجة أقل. وليس أدل على ذلك من عمارة اليمن، وعمارة الأهوار في العراق، والعمارة الريفية في مصر، فجميعها تواصلت بشكل أو بآخر مع العمارة العربية الإسلامية. وعليه فإن توقف عطاء هذه الحضارات، بسبب موتها سياسيًا، لا يعني القضاء على حضورها المادي وإنجازاتها الحضارية، خاصة إنجازاتها المعمارية.

كما أن ظهور حضارات جديدة، أعقبت الانحسار السياسي للحضارات السامية والمصرية القديمة، كالحضارة اليونانية والبيزنطية والفارسية، لا يعني أيضًا القضاء على الحضارات السابقة لها، بل إن الثابت علميًا هو أن الحضارة اليونانية قد تأثرت تأثرًا كبيرًا جدًا بالحضارة المصرية القديمة، خاصة بالعمارة الدينية والزخارف والفنون. كما أن الحضارة الفارسية ليست أكثر من استمرار للحضارات السامية، خاصة في العمارة والفنون. وعليه فإن ما وصل إلى الحضارة العربية الإسلامية، ليس يونانيًا ولا بيزنطيًا ولا فارسيًا. وإنما هو عربي، "وسامي"، ومصري قديم، تواصل إلى الحضارة العربية الإسلامية بفعل العامل البشري، الذي هو استمرار لأجداده من العرب البائدة، والعاربة، والساميون، والمصريون القدماء. وتواصل بفعل ضرورات الحياة، واستمرار العادات والتقاليد، وتقانة البناء، وبفعل البيئة والجغرافيا والتاريخ المشترك. وإن توسط الحضارات اليونانية والبيزنطية والفارسية بين الحضارات الأم للعالم العربي، التي أشرت إليها، وبين الحضارة العربية الإسلامية، لا يعني بالضرورة ممارسة أي نفوذ لهذه الحضارات على الحضارة العربية الإسلامية. وإذا قصرت كلامي هنا على العمارة، فليس ثمة وساطة يونانية أو بيزنطية أو فارسية، كما يزعم المستشرقون وأتباعهم في العالم العربي للأسباب التي بينتها.

وأهم من ذلك أن العمارة في الحضارات الأم مورست جزئيًا باستعمال الرسومات، كما بينت، الأمر الذي رفع مستوى ممارستها من منهجية التجربة والخطأ إلى منهجية التفكر والتأمل. فوضع الرسومات قبل ممارسة العمل يدلل على أن العمارة مورست في حيز الوعي وليس بالتكرار. وأكثر من ذلك أن العمارة في بعض الحضارات الأم مورست جزئيًا بمنهجية الأحكام، وشريعة حمورابي وما حوته من قوانين لممارسة مهنة البناء، دليل لا يحتاج إلى إثبات. وكذلك التشريعات التي وضعها قصي بن كلاب[٩] عند تخطيطه لمدينة مكة. وهذا الأمر، أي ممارسة العمارة بمنهجيتي التفكر والتأمل والأحكام لم ترتقي إليه، بل لم تستفد منه أو توظفه، الحضارات اليونانية والبيزنطية والفارسية، التي اقتصرت ممارساتها على التجربة والخطأ

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

والتكرار، على الرغم من أن الارتقاء إلى منهجيتي التفكر والتأمل والإحكام، كان متاحًا لهذه الحضارات.

أما النسب المستعملة في العمارة اليونانية والبيزنطية فيما بعد، فمصدرها مصري قديم[١٠] والشكل (رقم -٢) يوضح حقيقة مصدر مفهوم النسب. وقد درس الطبيب العربي البغدادي[١١] (٥٥٧-٦٢٩هـ/١١٦١-١٢٣١م) هذا المفهوم وتوسع في شرحه. فتأثير عمارة أسلافنا واضح كل الوضوح على العمارة اليونانية والبيزنطية، كما أن تواصلنا المباشر مع عمارة أسلافنا حقيقة مؤكدة كما بينت. وإذا أضفنا إلى كل ما سبق أن الحضارة اليونانية لم تقدم أي إسهام نظري أو فكري في العمارة، فهي إذن لم ترتقي إلى التأطير النظري للأعمال المعمارية التي أنجزتها. وأما إسهامها الرياضي في العمارة المتمثل في الهندسة الإقليدية، ونظرية فيثاغورس للمثلث القائم الزاوية، فمصدره[١٢] بابلي ومصري قديم. وعليه فإن حضارة لم ترتقي إلى تأطير عمارتها نظريًا، لا يمكن أن تكون حضارة مؤثرة بل متأثرة وهذا ما اكده سارتون:[١٣]

> **"ومما أفسد العلم القديم كثيراً ظاهرتان من الإهمال المتعمد الذي لا يمكن التسامح فيه، الظاهرة الأولى تتعلق بإهمال العلم الشرقي، فمن سذاجة الأطفال أن نفترض أن العلم بدأ في بلاد الإغريق، فإن المعجزة اليونانية سبقها ألوف الجهود العلمية في مصر وبلاد النهرين وغيرها من الأقاليم، والعلم اليوناني كان إحياءً أكثر منه اختراعاً(*). والظاهرة الثانية إهمال الإطار الخرافي الذي نشأ فيه العلم، لا الشرقي [فحسب] بل اليوناني كذلك، وكفانا سوءاً أننا أخفينا الأصول الشرقية [للعلم]، التي لم يكن التقدم الهليني [اليوناني] مستطاعاً بدونها... والخلاصة أنه إذا كتب تاريخ العلم القديم بغير إمداد القارئ بمعرفة كافية بهاتين الطائفتين من الحقائق، أي العلم الشرقي من جهة، والخرافة اليونانية من جهة أخرى، جاء هذا التاريخ، لا ناقصاً فحسب، بل مزيفاً مدخولاً كذلك".**

وهذا بدوره ينفي المعجزة اليونانية المزعومة، ويقوض دعاوى تفوقها وتميزها وأصالتها، ويبين مصادرها المصرية القديمة والبابلية، وغيرها من الحضارات السابقة. كما يعزز رأيي أن ما تواصل إلينا من المنجزات الحضارية، والمعمارية منها بصفة خاصة، قد تواصل إلينا فكراً وتقانة من أسلافنا الساميين والمصريين القدماء والعرب، وتماهت في العمارة العربية الإسلامية. التي سأعرض لها فيما يلي من دراسة وتحليل، مبينًا منظومتها الفكرية، وتنوع منتجها العملي، وتواصل حضورها، وتأثيرها على العمارة الأوروبية. ثم انحسارها وتأثرها بالعمارة الحديثة، وما بعد الحديثة، والتفكيك.

(٢) العمـــارة العربية الإسلامية

صناعة البناء، أي العمارة، كما عرفها ابن خلدون[١٤] هي: "أول صنائع العمران الحضري وأقدمها وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت للكن والمأوى للأبدان...". ومعرفة العمل تتطلب الإلمام بأمور كثيرة وعلوم متعددة تسهم جميعها في تشكيل منظومة فكرية. ولقد سبق وأن عرضت في أبحاث[١٥] سابقة لمكونات العمارة العربية الإسلامية، وبينت أنها منظومة فكرية ذات بناء منطقي، شامل ومتنوع، لها مقدماتها ومواضيعها ونتائجها، وتتضمن منهجيات عمل وآليات إنتاج ووسائل تطبيق، تمارس تحت مظلة أحكام، وتؤدي وظائف متعددة. والعمارة الإسلامية كانت أول عمارة في تاريخ الحضارة تشكل منظومة فكرية مكتملة التكوين. فجذورها التاريخية عميقة، ومصادرها متنوعة، وأهدافها نبيلة، وغاياتها واضحة، ومنهجيات إنتاجها راقية، ظاهرة الحضور، موحدة فكريًا ومتنوعة تقانيًا، فكانت العمارة الإسلامية أول عمارة في تاريخ الحضارة الإنسانية، تمارس بصورة شاملة، بمنهجية الإحكام، وضمن رؤى فلسفية[١٦] مرتبطة بمنهجيات إنتاجها، ونابعة من فلسفة التاريخ الإسلامي القائمة على: الدروس والعبر، والتواصل التاريخي، والتفكر والتأمل، والتنوع داخل الوحدة.

ولقد بينت[١٧] أن مفهوم الدروس والعبر له جانبان: إيجابي يتمثل في التفكر والتأمل، وسلبي يتمثل في التكرار. وبينت أن العمارة الإسلامية تبنت الجانب الايجابي منها. كما بينت أن مفهوم التفكر والتأمل مرتبط بمنهجية التقدير أو التفكير المسبق على إنتاج العمل وان استعمال الرسومات ارتقى بممارسة العمارة إلى مفهوم ومنهجية التفكر والتأمل. وأن التواصل التاريخي مرتبط بمنهجية التنوع داخل الوحدة، المرتبطة بدورها كمفهوم فلسفي بمنهجية الأحكام. وعمارة المساجد دليل على هذا الترابط فبنائها متواصل في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وغير الإسلامي، وتؤدي نفس الوظيفة، وهي الصلاة، (ووظائف اجتماعية أخرى)، وتخضع في تصميمها لمنظومتي أحكام الصلاة وأحكام البنيان. فهي، أي المساجد، على الرغم من وحدة وظيفتها، متنوعة في أشكالها وتقانة بنائها. وما ينطبق على عمارة المساجد ينطبق على عمارة جميع أنواع المباني، لأن النظام الاجتماعي الإسلامي، ومنظومة القيم والعادات والتقاليد، والمعالجات البيئية، التي تحكم إنتاج العمل المعماري، أعاد الإسلام تشكيلها، وضبط مسارها، وقننها، وأخضع ممارسة العمارة لمنهجية الأحكام.

وبهذا أصبح المنتج المعماري العربي والإسلامي موحد وظيفة وفكرًا، ومتنوع شكلاً وتقانة. ومن هنا جاء مفهوم التنوع داخل الوحدة في العمارة الإسلامية، التي فرضت حضورها في العالمين العربي والإسلامي حتى بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث بدأت تتراجع وينحسر حضورها لصالح العمارة الغربية

(*) خط الإظهار السفلي من وضعي

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

التي بدأت بفرض حضورها (بفعل النفوذ السياسي للدول الأوروبية) في المدن الإسلامية والعربية، كالأستانة والقاهرة ودمشق وغيرها. وتأسس هذا الحضور بظهور الجامعات والعمارة الحديثة في بداية القرن العشرين. حيث فرضت مناهج التعليم الأوروبية على كليات العمارة بحجة الحداثة والتقدم، وغيبت[١٨] العمارة الإسلامية، على الرغم من غنائها الفني والنظري والفكري والفلسفي والعملي، واقتصر تدريسها في كليات العمارة على مادة تاريخ العمارة، وبمنهجية المستشرقين القائمة على فلسفة التحقيب التاريخي الغربي، وتقسيم العمارة إلى طرز، ومن ثم تغييب الفكر المعماري الذي حكم إنتاجها، واستبداله بخصائص شكلية وجمالية، وإخضاعها لتأثير الحضارتين البيزنطية والساسانية.

وبالجملة فإن العمارة الإسلامية كمنظومة فكرية نشأت مبكرة زمنيًا، وكانت شاملة نظريًا، حوت مفاهيم: عملية، ونظرية، وفكرية، وفلسفية، وفنية راقية، أثرت على العمارة الأوروبية منذ القرن الثامن الميلادي، وانحسر حضورها أمام هجمة العمارة الأوروبية منذ منتصف القرن التاسع عشر. وسأعرض فيما يلي لتأثير العمارة العربية الإسلامية على العمارة الأوروبية.

(٣) تأثير العمارة العربية الإسلامية على العمارة الأوروبية

لقد أثرت العمارة العربية الإسلامية على العمارة الأوروبية نظريًا وعمليًا، في مجالات متعددة يخص منها العمارة والزخرفة والتخطيط العمراني وإدارة المدن. وسأعرض لهذه التأثيرات تباعًا مبتدءًا بالتأثيرات النظرية.

١/٣- التأثيرات النظرية

لقد بدأت التأثيرات النظرية مبكرة في الأندلس ومتأخرة بعض الشيء في إيطاليا، ففي إسبانيا تم اقتباس أحكام السوق، وأحكام تنظيم الحرف، وأحكام البنيان الإسلامية، وتطبيقها على المدن الاسبانية. ففي بداية القرن الثالث عشر (١٢١١م) تم إقرار لائحة[١٩] طائفة الحجارين والبنائين في مدينة برشلونة، وتعيين ناظر أو مفتش الحرف. وهي نفس وظيفة المحتسب في المدينة الإسلامية، ومهمته الإشراف على سور المدينة والأشغال العامة والمنازعات بين الجيران. وفي سنة ١٢٥٢م أخضعت جميع الطوائف الحرفية في إشبيلية للأحكام التي تضمها كتاب "وزن شيوخ البنائين ومعيار الصناع" depso de los alarifes balanza de los menestrales الذي أصدره الملك فرناندو الثالث. وهو منقول[٢٠] عن كتاب **أحكام السوق** للسقطي، الذي عاش في القرن السادس الهجري، وعن رسالة ابن عبدون في **القضاء والحسبة**. حيث قام ليفي بروفنسال بتحقيقهما مع كتاب الجرسيفي في الحسبة، ونشرها المعهد الفرنسي بعنوان: "**ثلاث رسائل في آداب الحسبة والمحتسب**" في الأندلس.

وفي سنة ١٤٤٣م تم تطبيق الكتاب في مدينة طليطلة، وأصبح لها شيخ بنائين أو (العريف). وهذه الوظيفة من "الموروثات البلدية الإسلامية"[٢١]. كما أخذ الأسبان عن "المدجنين أو الموريسكيين" (وهم المسلمون الذين تم إجبارهم على اعتناق المسيحية) الأساليب التي كانت متبعة في المدن العربية في الأندلس، لتأهيل[٢٢] المهندسين والبنائين والنجارين وغيرهم. كما اتبعوا نفس نظام الاختبارات التي تعقد لهم قبل أن يمارسوا مهنهم. وقد عم هذا التقليد في جميع المدن الإسبانية، كما انتقل هذا التقليد إلى المكسيك، وبعض مدن أمريكا الجنوبية اعتبارًا من القرن السادس عشر. كما ظهر كتابين[٢٣] آخرين متأثرين بكتاب اللوائح ورسائل الحسبة. الأول من تأليف لدبيجو لويث دي أريناس D.L.de Arena سنة ١٦٣٣م بعنوان: "مختصر نجارة الخشب وكتاب العريف"، وطبع وطبق في مدينة اشبيلية. أما الكتاب الثاني فوضعه فراي أندرس دي سان ميجل Obras de Fray A. des. Miguel في المكسيك بعنوان: "نجارة الخشب الأبيض". خصص الجزء الأول منه لهيكل سليمان (المزعوم)، والجزأين الثاني والثالث لقص الخشب وتركيبه وعمل الأسقف.

واللافت للنظر؛ أن معلم البناء[٢٤] في مدينة سرقسطة كان عربيًا، وان ابنه محمد بيتو ورثه في هذا المنصب. وهو الذي قام بأعمال صيانة قصر الجعفرية سنة (٧٠١هـ/١٣٠١م) لصالح الملك الاسباني الفونسو الأول. وقصر الجعفرية بناه الملك الثاني من سلالة بني هود، أبو جعفر أحمد الأول الملقب بالمقتدر بالله سنة (٤٣٨-٤٧٤هـ/١٠٤٦-١٠٨١م). كما نجد أن دور المعلمين[٢٥] (العرفاء) العرب تواصل في سرقسطة، ففي سنة ١٤٨٨م كان مدير إنشاءات قصر الجعفرية المعلم العربي فرج غالي. كما عهد سنة ١٤٩٣م إلى المعلم فرج غالي والمعلم محمد بلاثيو والمعلم ابراهيم مفرج إقامة سقف الصالة الرئيسية في القصر. وفي سنة ١٥٠٠م خلف محمد غالي والده فرج في الإشراف على الأعمال في قصر الجعفرية ومدينة سرقسطة، ثم خلفه ابنه محمد غالي. وهذا يوضح مدى التأثير الذي مارسته العمارة العربية الإسلامية على إسبانيا لأن هؤلاء المعلمين العرفاء كانوا على جانب كبير بالمعرفة النظرية التي تحكم التطبيقات العملية التي سأعرض لها بعد أن أعرض للتأثيرات النظرية العربية على إيطاليا وباقي أوروبا.

كانت التأثيرات النظرية للعمارة العربية الإسلامية علمية وفكرية وفلسفية وفنية، وتأثيرها اعم انتشارًا وأقوى حضورًا، بل ما زال فاعلاً حتى عصرنا الحاضر بطروحاته العربية الإسلامية الأصلية، كالنسب ونقاط التلاشي في رسم المنظور ونظريات الإدراك الجمعي. التي شكلت بدايات، ما كان للعلوم والتقانات الحديثة أن توجد بدونها كرسم المنظور والتصوير. فليوناردو دافنشي Leonardo da Vinci's الذي روج لقانون النسب[٢٦] الذي ادعى المهندس المعماري الروماني فيتروفيس Vitruvius (القرن الأول ق. م.) أن أصله يوناني، ما هو إلا قاعدة فرعونية مقدسة للنسب تمثل الإله أوزريس Osiris كرمز للتوازن والكمال والجمال. وقد صحح إخوان الصفا[٢٧] هذا المفهوم، كما عرض له بالتفصيل الطبيب العربي عبد اللطيف البغدادي[٢٨]. وإن ما روج له دافنشي، ثم القس

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

المعماري ليون باتيستا البرتي Alberti، ليس إلا نقلاً عن المصادر العربية، خاصة وأن بعض الكلمات والأحرف العربية [٢٩] ظهرت في كتاب منسوب لالبرتي Alberti ، وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن البرتي Alberti كان يعمل بقسم المحفوظات في البلاط البابوي وأنه زامل في عمله مختص باللغة العربية هو نيكولاس أوف كوسا Nicolas of Cusa لتبين لنا أن المصدر الذي أخذ عنه البرتي مفهوم النسب والمقياس الإنساني بصفة خاصة هو مصدر عربي، قد يكون إخوان الصفا أو عبد اللطيف البغدادي أو الاثنين معًا.

والحقيقة أن المتفحص لكتاب البرتي Alberti الموسوم بفن البناء On The Art of Building، يجد أنه نقل الكثير عن المصادر العربية[٣٠]، فقد نقل عن ابن قتيبة (٢١٣-٢٧٦هـ /٨٢٨-٨٨٩م) مقولة محمد بن الجهم البرمكي في المنطق: "أول الفكرة آخر العمل وأول العمل آخر الفكرة"، فإذا قارنا ما جاء في كتاب **أدب الكاتب** لإبن قتيبة على الصفحة الخامسة بما جاء في كتاب البرتي Alberti (١٤٠٤-١٤٧٢م) على الصفحة الثامنة، لوجدنا تأثيرًا واضحًا من الأول على الثاني. كما نجد تأثيرًا أقوى للحسن بن الهيثم على الرياضي[٣١] بياجو باراما Biago da Parma وتوسكانلي وبرونوليشي والبرتي في تكوين الصورة المظلمة كما في الشكل (رقم٣)، ونقاط التلاشي ورسم المنظور الهندسي والإدراك الجمعي، وجميعها من إبداعات ابن الهيثم. حيث كان بياجو باراما مدرسًا للرياضيات في كُتَّاب (المسمى تجاوزًا "جامعة") مدينة بادوا بإيطاليا، ودرس علم البصريات من مؤلفات الحسن بن الهيثم، حيث تلقاها عنه توسكانلي عندما كان طالباً في كُتَّابْ بادوا، الذي نقلها بدوره إلى صديقه المعماري برونليشي. حيث قام الأخير بإجراء تجارب عملية على تكوين الصورة بناء على نظريات ابن الهيثم في انعكاس الضوء وتكوين الصورة والمنظور الهندسي، وتمكن من رسم المنظور هندسيًا.

ولقد أخذ البرتي منظور برونليشي الهندسي والبسه ثيابًا لاتينيه مع المراجع الكلاسيكية المناسبة وجعله موضع قبول تام"[٣٢]. ثم تطور رسم المنظور بناء على فهم أوسع لنظريات ابن الهيثم في الإبصار. وتمكن البرتي من تحديد نقط التلاشي التي توصل إليها ابن الهيثم وأصبح بالإمكان رسم المنظور من وحي الخيال، وشاع استعماله في الرسومات المعمارية. ولقد لعبت نظريات ابن الهيثم في الإبصار، وفي رسم المنظور على وجه الخصوص، دورًا رئيسيًا في تغيير النظرة الأرسطية[٣٣] والمسيحية فيما بعد للكون. فبينما كانت هذه النظرة تعتبر أن الله هو مركز الكون تغيرت ليصبح الإنسان هو مركز الكون و مقياسًا لكل شيء. كما أن نظريات ابن الهيثم في الإدراك الجمعي التي عرفت في أوروبا بالجشتالت سيكولوجي Gestalt Psychology، لعبت نفس دور نظرياته في الإبصار في جعل الإنسان مركز الكون، كما تم توظيفها في علم النفس.

وبهذا يتبين لنا تأثير نظريات ابن الهيثم على العمارة الأوروبية، بل على العمارة العالمية، فنظرياته في الإبصار وفي تكوين الصور ورسم المنظور، ما زالت فاعله حتى يومنا الحاضر وستبقى فاعلة إلى الأبد. ومما سبق يتضح لنا تأثير العمارة العربية الإسلامية على العمارة الأوروبية في الجانب النظري، سقتها على سبيل المثال وليس الحصر. وسأعرض فيما يلي للتأثيرات العملية للعمارة العربية الإسلامية على العمارة الأوربية.

٢/٣- التأثيرات العملية

كانت التأثيرات العملية للعمارة العربية الإسلامية على العمارة الأوروبية أظهر حضورًا من التأثيرات النظرية. ففي إسبانيا كانت العمارة المدجنة (العربية) تفرض حضورها لدرجة أننا نجد من يقول:[٣٤]

> **"لقد اختلط كل من العنصرين الإسلامي والمسيحي في هذه البوتقة وبدرجات مختلفة ومتنوعة، وبصفة عامة يمكن القول في ميدان العمارة الدينية بأن المخطط مسيحي، كما أن ما هو إسلامي يقتصر على الهيكل البنيوي والزخرفي، أما بالنسبة للعمارة المدنية فإن المخطط عادة ما يكون إسلامياً ذلك أن الغزاة [الإسبان] اعتادوا على نمط البيت الذي كان فيه المهزمون [المسلمون] إذ يتسم بأنه أكثر جمالاً وراحة وإشراقاً من البيت المسيحي في الشمال، أما الزخرفة فنجد الجمع بين الموضوعات القوطية والزخارف الإسلامية".**

والواقع؛ أن التأثيرات النظرية التي أشرت إليها سابقًا تتضمن تطبيقات عملية لإعمال البناء والنجارة، كما أن القائمين على إنشاءات المدن أو شيوخ البناء كانوا من العرب المدجنين كما رأينا في حالة طليطلة واشبيلية وسرقسطة الذي توارث فيها وظيفة شيخ البناء ثلاثة من عائلة واحدة. كما أن العناصر المعمارية والزخرفية لمفردات النسيج المعماري في المدن الإسبانية أكبر دليل على تأثير العمارة العربية الإسلامية في اسبانيا. ونذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر بعض مفردات النسيج المعماري التي تأثرت بالعمارة الإسلامية، مثل كنيسة سان ماركس بمدينة اشبيلية شكل (رقم-٤)، حيث تبدوا الزخارف الإسلامية بوضوح تام. وكذلك مبنى كنيسة العذراء بسرقسطة شكل (رقم-٥)، حيث تظهر الزخارف الإسلامية أيضاً بوضوح صارخ. وكذلك في سقف كنيسة ديرسانت كلارا في بلد الوليد شكل (رقم-٦)، حيث تظهر تقانة النجارة العربية الإسلامية في عمل السقف، كما تظهر زخارف الأطباق النجمية بكامل رونقها. ومثال آخر لتأثير العمارة العربية الإسلامية على العمارة الأوروبية هو سقف قاعة الاحتفالات بجامعة الكالا دي اينارس بالعاصمة مدريد، شكل (رقم-٧) حيث تبدوا الزخارف الهندسية العربية بتكويناتها المختلفة.

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

والحقيقة؛ أن تأثير العمارة العربية الإسلامية لم يقتصر على اسبانيا، بل امتد منها ليشمل أمريكا الجنوبية، وسأكتفي بمثال واحد على هذا التأثير، وهو تفاصيل زخرفيه في أحد حوائط كنيسة دي لابروفيسا بالمكسيك شكل (رقم-٨)، المزخرف بالأطباق النجمية العربية الإسلامية. وبهذا يتضح لنا حجم التأثير الذي مارسته العمارة العربية الإسلامية على مفردات النسيج المعماري للمدن الإسبانية ومدن أمريكا الجنوبية. أما تأثير العمارة العربية الإسلامية على باقي أوروبا، فيلخصه لنا المعماري الانجليزي كريستوفر رن Christopher Wren (١٦٣٢-١٧٢٣م) في نقده للعمارة الغوطية Gothic Architecture، التي سادت في أوروبا في القرون (١٢-١٥) الميلادية:[٣٥]

> **"هذا الذي نسميه الآن بالنمط الغوطي في العمارة (والذي يسميه الإيطاليون ما لم يكن بعد الطراز الروماني)، مع أن الغوط لم يكونوا أكثر من مخربين وليسوا بنائين. اعتقد، ولسبب وجيه، يجب أن يسمى بالطراز "السراسيني" Saracen [المقصود بالسراسين العرب] ولأن هؤلاء الناس لا يعوزهم الفن ولا العلم، وبعد أن فقدنا نحن في الغرب الفن والعلم، استعرنا منهم مرة أخرى، ومن خلال كتبهم التي ترجموها بكد واجتهاد عظيم عن اليونان".**

هذا اعتراف صريح وواضح من معماري إنكليزي وسفير سابق لبلاده في إيطاليا بأن العمارة الغوطية ليست إلا عمارة عربية إسلامية. وإذا أخذنا بعين الاعتبار بأن هذه العمارة انتشرت في كل أوروبا في القرون (١٢-١٥) الميلادية، فيكون تأثير العمارة العربية الإسلامية قد عم جميع أوروبا في هذه الفترة، لأن العمارة الغوطية اختصت بعمارة الكنائس التي لم تخلوا منها مدينة أوروبية. فكانت أبراج الكنائس أشبه بمآذن الجوامع في المدن العربية، حتى أن الناظر إلى أبراج هذه الكنائس يشعر وكأنه في مدينة عربية. فبرج كنيسة مقبرة شيرفال Abbey Chiaravall Milaness، بمدينة ميلانو بإيطاليا، التي بنيت في القرن الرابع عشر شكل (رقم-٩)، يوضح تأثر العمارة الغوطية بالعمارة العربية الإسلامية، فهو أشبه ما يكون بالمآذن التي بنيت في فترة حكم المماليك. وكذلك برج كنيسة جروتاردو San Grottardo بمدينة ميلانو Milan، التي بنيت في القرن الرابع عشر أيضاً، شكل (رقم -١٠)، أشبه ما يكون بالمآذن القلمية التي بنيت في فترة حكم العثمانيين. وهذا التأثير أيضاً تجلى في عمارة القصور، فقصر الدودج Dodge بالبندقية Venice (الذي بني في نهاية القرن الرابع عشر وبداية الخامس عشر الميلاديين) شكل (رقم-١١) مثال صارخ على تأثر العمارة الغوطية بالعمارة الإسلامية سواء بالعقود المدببة أو بالشرافات التي تعلو حوائط القصر.

والحقيقة أن تأثير العمارة الإسلامية على العمارة الأوروبية بدأ مبكرًا قبل تأثيرها على العمارة الغوطية- فالدارس للعمارة الرومانسية[٣٦] التي سادت في أوروبا في القرون (٩-١٢) الميلادية، يجد أنها تأثرت بالعمارة الإسلامية سواء باستعمال العقود المدببة أو الأبراج المربعة الشبيهة بالمآذن، أو الأقبية أو الزخارف. لكن التأثير الحقيقي بدا جليًا في العمارة الغوطية. أما دعاوى رن Wren بأن العرب ترجموا الكتب اليونانية وأن أوروبا تأثرت بالمصادر وليس بالوسيط، أي بالعرب والمسلمين، فهو ادعاء غير صحيح للأسباب التي بينتها في بداية هذا البحث، كما أن الحضارة اليونانية لم تسهم إطلاقاً في الفكر المعماري.

ثمة مصدر آخر لتأثير العمارة الإسلامية على العمارة الأوروبية، وهو تأثير قبة الصخرة المشرفة في مدينة القدس على النسيج المعماري للمدن الأوروبية. وقد عرضت لها بالتفصيل في بحث سابق[٣٧]، ولا أرى ضرورة لتكراره هنا، لكن التأثير الأقوى كان لمدينة القدس على المدن الأوروبية الذي سأنوه به ضمن تأثير التخطيط العمراني للمدن العربية على المدن الأوروبية فيما يلي من عرض وتحليل.

(٤) تأثير التخطيط العمراني للمدن العربية على المدن الأوروبية

لقد بينت في بداية البحث كيف وظفت الممالك الإسبانية نظام الحسبة في إدارة مدنها فكان تأثير المدينة العربية الإسلامية قائماً بفعل تواصل الحضور العربي فيها: البشري منه أو المادي، المتمثل في النسيجين المعماري والعمراني، وبفعل النظم الإدارية[٣٨] المتبعة في إدارة المدن ليس فقط الإسبانية بل المدن المكسيكية وباقي مدن أمريكا الجنوبية. ولقد أكد هذا التأثير الإسباني مانويل مونيرو باييخو M. M. Vallijo بوضوح حيث شخص حالتين لهذا التأثير، هما:[٣٩]

١- أن المدينة رغم أنها في الأصل والتركيب البنيوي مسيحية فإن بها عينات مهمة من العناصر المعمارية المدجنة (العربية)، وضمت أحياء لها سماتها الخاصة مثل حارة المورو (العرب الذين اجبروا على اعتناق المسيحية) التي تعكس الوضع الخاص لسكانها.

٢- أن تكون مدينة ذات أصول إسلامية تم الاستيلاء عليها على يد المسيحيين الذين أفادوا من البنية الحضرية الموروثة والمباني القائمة.

وهذا يكفي لتدليل على تأثر المدن الإسبانية بالتخطيط العمراني للمدن العربية لأن الخوض في التفاصيل أكبر من أن يتسع له هذا البحث.

أما التأثير الأعم والأشمل الذي عم كل أوروبا فكان تأثير التخطيط العمراني لمدينة القدس، الذي عرضت له في بحثي[٤٠] المشار إليه سابقًا، حيث ركزت فيه على تأثير القدس على المدن الإيطالية في القرون (١٠-١٦) الميلادية. الذي تواصل تأثيره على المدن الأوروبية[٤١] أيضاً حتى قيام الثورة الفرنسية سنة -1799

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

1789م وبداية قيام الدولة العلمانية في أوروبا. ولقد بينت في بحثي السابق أنه ساد أوروبا مفهومين للقدس: سماوي وأرضي، بمعنى أن هناك قدسًا سماوية وأخرى أرضية. وهذان المفهومان: القدس الأرضية والقدس السماوية يشكلان مدينة الله عند القديس اغسطين، والمدينة المثالية في أوروبا في القرون (١٠-١٦) الميلادية، المصطلح على تسميتها في أوروبا بالقرون الوسطى وعصر النهضة.

كما بينت أن تأثير القدس على المدن الإيطالية والأوروبية في القرون (١٠-١٤) الميلادية (المصطلح عليها بالقرون الوسطى في أوروبا)، كان روحيًا أكثر منه ماديًا، أما في القرون (١٥-١٦) الميلادية (المصطلح عليها بعصر النهضة في أوروبا) فكان تأثيرها الروحي أكثر مادية من السابق، لأن العناصر المعمارية للقدس الأرضية أصبحت أكثر وضوحًا في الأعمال الفنية والمعمارية وفي الأدب المعماري. ففي الأعمال المعمارية والفنية كان التأثر بالتخطيط العمراني للقدس الأرضية، خاصة بقبة الصخرة وموضعها الحضرية، والتصور العام لتخطيط مدينة القدس الأرضية جليًا وواضحًا، كما في لوحة الفنان الإيطالي بيرو دالا فرانسكا شكل (رقم-١٢)، المعروفة بالمدينة المثالية، التي أنجزها سنة ١٤٧٠م. وتظهر فيها قبة الصخرة باعتبارها الهيكل المزعوم في وسط اللوحة، كما تجمع اللوحة بين العمارة الدينية القادمة من القدس الأرضية والعمارة المحلية الرومانية. ويظهر التأثير كذلك في تصور الفنان الألماني ميشيل هارتمان (١٤٩٣م) شكل (رقم-١٣).

وأما تأثيرها في الأدب المعماري فيظهر في أعمال البرتي[٤٢] Alberti والمعماري الايطالي دوناتوا برامنتي Donato Bramante (١٤٤٤-١٥١٤م) وكذلك في أعمال دانتي اليجيري Dante Alighieri (١٢٦٥-١٣٢١م) وغيرهم. وأما أهم المدن الأوروبية التي تأثرت بالقدس إضافة إلى المدن الايطالية التي اعتبرت نفسها القدس الجديدة فهي القسطنطينية[٤٣]، وباريس وموسكو اللتان أنشأ بجانبهما مدينتان باسم القدس الجديدة. ومع قيام الثورة الفرنسية وظهور الدولة العلمانية والثورة الصناعية في أوروبا، وتراجع الدولة العثمانية أمام القوى الأوروبية الصاعدة في بداية القرن التاسع عشر، انحسر تأثير التخطيط العمراني للمدن العربية على المدن الأوروبية، خاصة تأثير مدينة القدس، التي عانت في نفس الوقت من هجمة استيطانية[٤٤] يهودية وأوروبية أثرت على نسيجها المعماري والعمراني.

كل هذه العوامل جعلت العمارة العربية تتراجع وتنحسر رويدًا رويدًا، تحت تأثير الهجمة الاستعمارية الأوروبية ودعاوى التحديث، فتشوه النسيجين المعماري والعمراني في المدن العربية، ففقدت شخصيتها البصرية، وهويتها المعمارية، إلا مراكزها التقليدية التي بقيت محافظة على هاتين الخاصتين، كالقدس ودمشق والقاهرة، وزاد الأمر سوءًا تبني الجامعات العربية، منذ ظهورها في بداية القرن العشرين وحتى الآن، لمناهج الدراسة الغربية، فغيب الفكر المعماري العربي الإسلامي، على غنائه الفكري وتراثه الفني، وسأعرض لتأثر العمارة العربية بالعمارة الغربية، فيما يلي من دراسة وتحليل.

(٥) تأثر العمـــارة العربية بالعمـــارة الغربية

بدأ تأثير العمارة الأوروبية على العمارة العربية الإسلامية منذ منتصف القرن التاسع عشر، نتيجة للضغوط الأوروبية على الدولة العثمانية لتغيير نظمها الإدارية. فصدرت منظومة القوانين التي عرفت بالتنظيمات في الفترة من سنة (١٨٣٩-١٨٦٠م). وشملت هذه التنظيمات إنشاء البلديات، فأنشأت بلدية القدس سنة (١٢٨٠هـ /١٨٦٣م)، ثم أعقبها إنشاء بلديات في كل مدن الدولة العثمانية فأنشأت بلدية حلب سنة (١٢٨٣هـ/١٨٦٦م) وفي نفس الفترة أنشأت بلدية القاهرة. وحلت البلدية محل نظام الحسبة في إدارة المدن ورقابة الأسواق، فألغيت وظيفة المحتسب وحل محله رئيس البلدية. ثم ألغي نظام أحكام البنيان الإسلامية وحل محله قانون البناء العثماني. كما تم الاستعانة بالمهندسين المعماريين والمدنيين الأوروبيين، وأنشأت القصور في استانبول والقاهرة على النمط الأوروبي، كقصر الدولمباشي في استنبول الذي بني في منتصف القرن التاسع عشر. والواقع أن عناصر عمارة الباروك والركوكو[٤٥] بدأت بالظهور في عمارة مدينة استنبول منذ منتصف القرن الثامن عشر، ثم انتقلت إلى دمشق بعد ذلك. كما بنا مهندس فرنسي لمحمد علي[٤٦] قصرًا أوروبي الطراز. ثم تبعه أبناءه وأحفاده، خاصة الخديوي إسماعيل[٤٧] الذي غير معالم القاهرة وقضى على شخصيتها البصرية وغير هويتها المعمارية فأصبحت أوروبية الهوية.

ثم جاء الاستعمار فغير نظام إدارة المدن بالكامل واستبدل قانون البناء العثماني بقوانين التنظيم البريطانية والفرنسية، وعملت مخططات هيكلية جديدة للمدن على يد مهندسين أوروبيين. فمهندس بلدية الإسكندرية سنة ١٩١٧م كان انكليزيًا وهو الذي قام بعمل المخططات الهيكلية للإسكندرية وللقدس، وهكذا في باقي المدن العربية. فأخذ النفوذ الأوروبي شكلاً مؤسسيًا، أسفر عن تغيير الشخصية البصرية والهوية المعمارية للمدن العربية باستثناء المدن ذات المراكز التقليدية أو التاريخية كالقدس ودمشق والقاهرة، حيث حافظت هذه المراكز على شخصيتها البصرية وهويتها المعمارية.

وكان العامل الأقوى في انحسار العمارة العربية الإسلامية هو ظهور الجامعات في العالم العربي في بداية القرن العشرين، وتبنيها مناهج الدراسة الأوروبية، التي عملت على تغييب الفكر المعماري العربي الإسلامي، وتغيير بنيته النظرية. فاستبدلت منهجيات التصميم، واستأصلت العمارة الإسلامية من بيئتها الحضارية، وبوعد بينها وبين جذورها التاريخية، وشكك في أصالتها وتبنى أعضاء هيئة التدريس العرب منهجية المستشرقين في تفسير العمارة العربية الإسلامية، وأخضعوها لتأثير العمارة البيزنطية والعمارة الساسانية

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الفارسية، خلافاً لما بينت في بداية هذا البحث. وبالجملة فإن تدريس[٤٨] العمارة الإسلامية في الجامعات العربية اقتصر على مادة تاريخ العمارة. ففي الجامعات المصرية خصص ٤٨ دقيقة، أي أقل من ساعة معتمدة، لتدريس تاريخ العمارة الإسلامية أي ما يعادل (٠.٠٠٣) من كامل وقت المنهج الدراسي البالغ ٢٣٤ ساعة معتمدة، والممتد على ٥ سنوات. أما في الجامعة الأردنية فخصص ٣ ساعات لتدريس تاريخ العمارة الإسلامية من أصل ١٦٥ ساعة معتمدة، أي ما يعادل (٠.٠٠٢) من كامل وقت المنهج الدراسي الممتد على خمس سنوات أيضًا. وهذه النسب تنطبق على جميع الجامعات العربية وربما الإسلامية.

ولقد أسفر هذا التبني للمناهج الأوروبية عن خلق أجيال من أساتذة الجامعات والمعماريين الممارسين العرب والمسلمين تنكروا لأنفسهم ولحضارتهم، أخذوا بظواهر الحضارة الغربية فجهلوا فكرهم المعماري "وعطلوه واتخذوا من جهله وكراهته مذهباً يقرون به ويدعون إليه"[٤٩]. فأصبحت البيئة الجامعية العربية بيئة غربية شكلاً ومضمونًا، وأعضاء هيئات تدريسها عاجزون عن إنتاج المعرفة، يستوردون ما ينتجه الغرب ويجترونه اجترارًا، فتجذر الشكل المؤسسي للتأثير المعماري الغربي، وأصبحت جامعاتنا أكثر ترويجًا للعمارة الغربية من الجامعات الغربية نفسها دون الالتفات إلى هويتنا المعمارية والحضارية.

ولقد عملت الجامعات على ترسيخ تبعيتنا للعمارة الغربية فنقلتنا من عمارة عصر النهضة والباروك والركوكو، التي غزت مدننا منذ منتصف القرن التاسع عشر، إلى عمارة الحداثة بمدارسها المختلفة، ثم إلى عمارة ما بعد الحداثة، ثم إلى عمارة التفكيك. فجامعاتنا مستعدة لترويج كل ما يصدر عن الغرب من اتجاهات وحركات معمارية، وتمتنع بل ترفض توظيف الفكر المعماري العربي الإسلامي النابع من المصادر العربية الإسلامية الذي صاغه معماريون ومنظرون عرب ومسلمون. فجامعاتنا تقر بتبعيتها للعمارة الغربية ولا تعمل على الاستقلال عنها والتخلص من تأثيرها. وربما يكون المستقبل واعدًا الخلاص من هذه التبعية، فالجهود المبذولة من معاهد وجمعيات تاريخ العلوم، لإبراز إنجازاتنا العلمية وإعادة توظيفها في مناهج الدراسات الجامعية واعدة وتبشر بالخير، لكن لابد من تكثيف الجهود وحث أعضاء هيئات التدريس بجامعاتنا على إنتاج المعرفة والكف عن استيرادها.

وأخيرًا؛ فقد عرضت في هذا البحث للعمارة العربية الإسلامية، مبينًا جذورها التاريخية، وإنجازاتها النظرية والفكرية والفلسفية، ومنهجيات ممارستها، ومكانتها الحضارية، وتأثيرها في محيطها البيئي والحضاري المحلي والعالمي، ثم بينت أسباب انحسارها وتأثرها بالعمارة الأوروبية ونوهت بالجهود الواعدة للخلاص من تبعيتنا للغرب وإعادة إبراز دورنا معماريًا وعلميًا وحضاريًا.

خاتمة

خُصص هذا البحث لتأثير وتأثر العمارة العربية الإسلامية، فعرض لجذورها المتمثلة بعمارة أسلافنا العرب البائدة والعاربة، وعمارة أسلافنا الساميين والمصريين القدماء، وبين مدى ارتباطها بهذه الجذور، وعرض لتأثير هذه الجذور على العمارة اليونانية والبيزنطية والفارسية، وفند دعاوى المستشرقين وأتباعهم في الوطن العربي، بتبعية العمارة العربية الإسلامية للعمارة البيزنطية والعمارة الفارسية. ثم عرض البحث للعمارة العربية الإسلامية فبين أنها تشكل منظومة فكرية مكتملة التكوين، تمارس بأرقى منهجيات التصميم المعماري، وضمن رؤى فلسفية، موحدة فكريًا ومتنوعة تقانيًا.

ثم عرض البحث لتأثير العمارة العربية الإسلامية على العمارة الأوروبية نظريًا وعمليًا، فبين الأفكار والنظريات والنظم التي نقلها المعماريون الأوروبيون عن المعماريين والعلماء العرب. كأسس رسم المنظور والمقياس الإنساني والنسب ونظام الحسبة، وتقانات البناء والزخارف. وبين الأصل العربي للعمارة الغوطية، كما بين تأثير التخطيط العمراني للمدن العربية على المدن الأوروبية، وكيف استمر هذا التأثير حتى قيام الثورة الفرنسية. ثم عرض لانحسار العمارة العربية، وبين أسبابه، ثم عرض لتأثير العمارة الأوروبية على العمارة العربية الإسلامية، وبين دور الجامعات في انحسار العمارة العربية الإسلامية، وكيف عملت على مأسسة تبعية العمارة العربية للعمارة الأوروبية، ثم ختم البحث بالتنويه بدور معاهد وجمعيات تاريخ العلوم الواعد لإبراز منجزاتها المعمارية والعلمية وإعادة توظيفها في مناهج الدراسة الجامعية.

الملاحق

شكل رقم (١)
الملك السومري المعمار كوديا (٢١٤٤- ٢١٢٤ ق.م)
يتفحص مخططا لمعبد لكش – وادي الرافدين

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

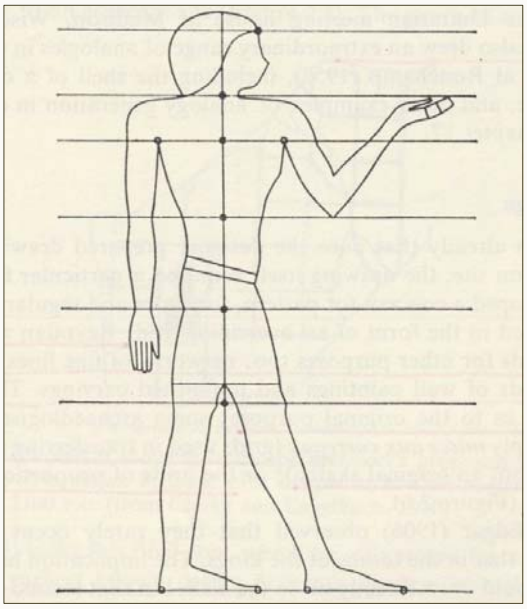

شكل رقم (٢)
النسب والمقياس الإنساني في الحضارة المصرية القديمة

شكل رقم (٣)
تكوين الصورة بالغرفة المظلمة – الحسن بن الهيثم
القرن ٤\٥ الهجري – ١٠\١١ الميلادي
بداية اختراع آلة التصوير
(نقلا عن: 1001 Inventions)

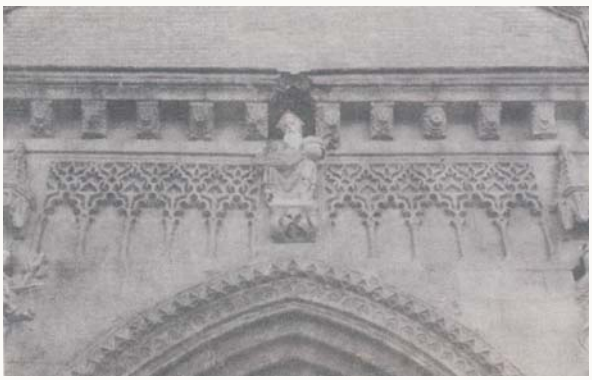

شكل رقم (٤)
واجهة كنيسة سان مارك بمدينة اشبيلية - اسبانيا
حيث تظهر الزخارف الإسلامية والعقد المدبب أو المخموس بوضوح تام

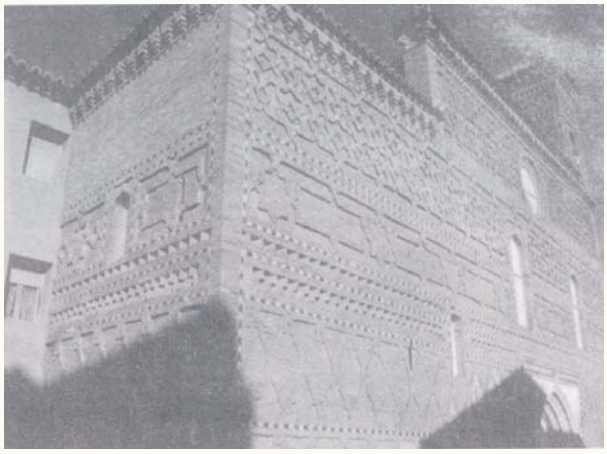

شكل رقم (٥)
كنيسة العذراء بمدينة سرقسطة - اسبانيا
حيث تظهر الزخارف الإسلامية بوضوح صارخ

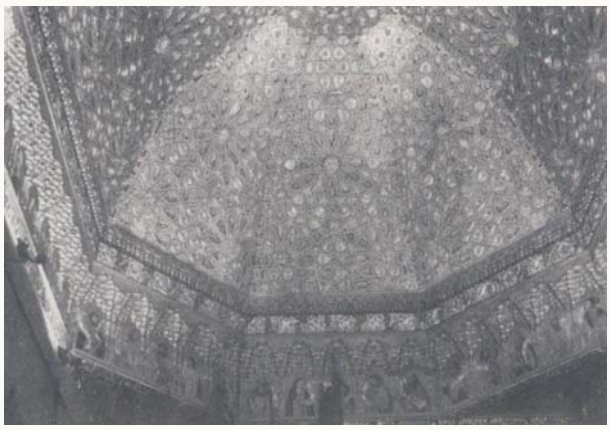

شكل رقم (٦)
سقف دير سانت كلارا ببلد الوليد - اسبانيا
ويظهر تقانة النجارة العربية وزخارف الأطباق النجمية الإسلامية
بكامل رونقها

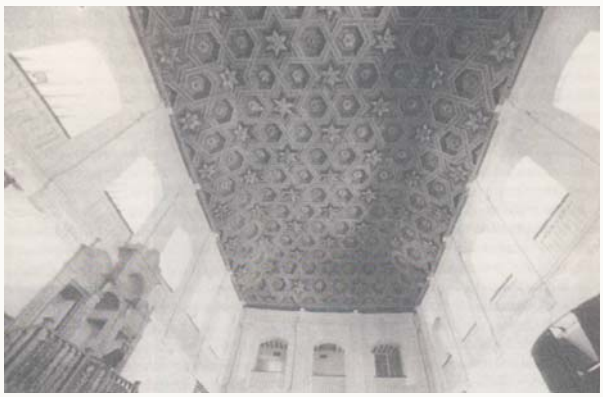

شكل رقم (٧)
سقف قاعة الاحتفالات بجامعة الكالا دي اينارس بمدريد - اسبانيا
ويظهر تقانة النجارة العربية والزخارف الهندسية العربية الإسلامية

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

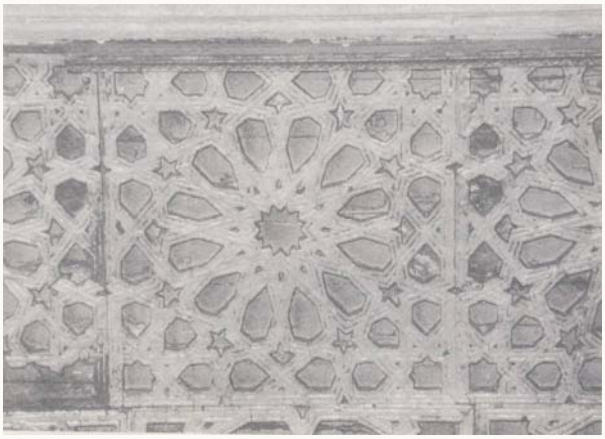

شكل رقم (٨)
زخارف أطباق نجمية عربية إسلامية
على حائط في كنيسة لابروفسيا – المكسيك

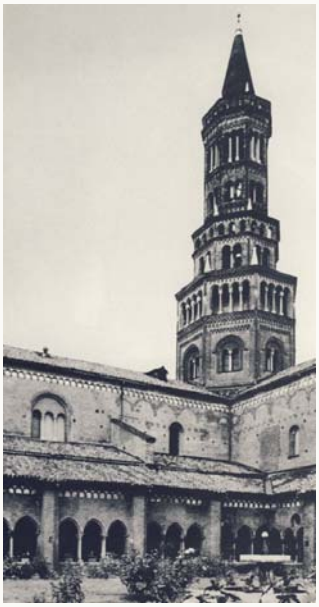

شكل رقم (٩)
برج كنيسة شيرفال القرن ١٤م في مدينة ميلانو – إيطاليا
يوضح تأثير المآذن التي بنيت في فترة حكم المماليك

شكل رقم (١٠)
برج كنيسة جروتاردو القرن١٤م في مدينة ميلانو – إيطاليا
يوضح تأثير المآذن التي بنيت في فترة حكم العثمانيين

شكل رقم (١١)
قصر الدوج بمدينة البندقية – إيطاليا الذي يوضح تأثر العمارة الغوطية
بالعمارة الإسلامية (نهاية القرن ١٤ وبداية القرن ١٥ الميلاديين)

شكل رقم (١٢)
المدينة المثالية تصور للفنان الإيطالي بيرو دا لا فرانسكا ١٤٧٠م ويظهر
تأثير مدينة القدس بتقليد قبة الصخرة وموضعها الحضرية
في مركز المدينة

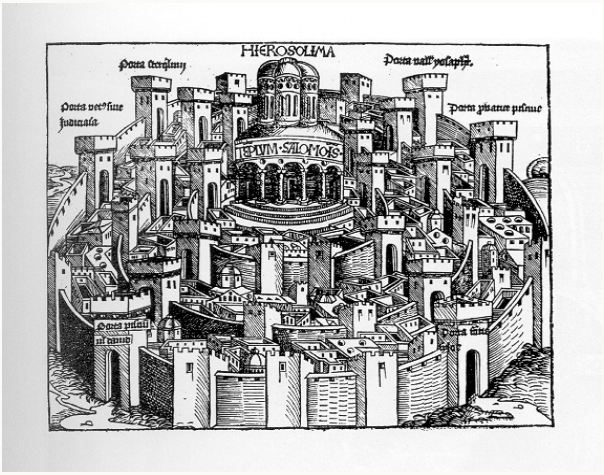

شكل رقم (١٣)
تصور للقدس الأرضية – ١٤٩٣م رسمه الفنان الألماني ميشيل هارتمان
ويسقط فيه تصورات القدس السماوية وتظهر فيه قبة الصخرة
باعتبارها الهيكل المزعوم في وسط المدينة

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

(١) انظر: العابد، بديع، دكتور(٢٠٠٨)، **الفكر المعماري العربي الإسلامي- التفسير التاريخي**، كتاب أبحاث المؤتمر الدولي الأول لتاريخ العلوم، جامعة الشارقة، الامارات العربية المتحدة. أعيد نشره بمجلة المدينة العربية، منظمة المدن العربية، ، العدد ١٤٣، مايو- يونيو ٢٠٠٩م، الكويت، (ص: ٣٤-٥٩).

(٢) انظر: **سورة الفجر**، الآية:(٧).

(٣) أنظر: دروزة، محمد (١٩٥٩م)، **تاريخ الجنس العربي**، ١٣ جزءًا، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، (ج١/٨).

(٤) انظر: يوسف، شريف (١٩٨٢م)، **تاريخ العمارة العراقية في مختلف العصور**، منشورات وزارة الإعلام، دار الرشيد للنشر، بغداد، (ص: ١٩-٢٠). بارو، اندريه (١٩٧٨م)، **سومر فنونها وحضارتها**، ترجمة د. عيسى سلمان وسليم التكريتي، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، (ص:٢٦٥-٢٦٨).

(٥) أنظر: دروزة، محمد (١٣٨٣هـ- ١٩٦٣م)، **عروبة مصر**، منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، لبنان، (ص:٨-٨٥). دروزة، محمد، **تاريخ الجنس العربي**، مرجع سابق، الجزء الثاني.

(6) See: Jones, O.,(1856), ***The Grammar Of Ornament***, Studio Editions, London, p:22 – 30.

(7) Jones, O. (Ibid), p.: 31- 38.

برنال، مارتن (١٩٨٧م)، **أثينا السوداء**، ٤ أجزاء، ترجمة د. لطفي يحيى وآخرون (ج١/٣٧-١٢٤). سارتون، جورج (بدون تاريخ نشر)، **تاريخ العلم**، ٦ أجزاء، ترجمة محمد خلف الله وآخرون، (ج١/٢٠-٢١، ٧٣-٢٨٦).

(٨) انظر: المراجع السابقة.

(٩) أنظر: الأزرقي، أبو الوليد (م. ٢٥٠هـ-٨٦٤م)، **أخبار مكة وما جاء بها من الآثار**، جزءان، تحقيق رشدي ملحس، دار الأندلس، (ج٢/٢٣٣-٢٦٥م).

(10) See: Broadbent. G. (1981), ***Design In Architecture***, John Willy & Sons, N.Y., (p.:31-38). See: Al-Hassani, S. (editor), (2007),***1001 Inventions, Muslim Heritage in Our World***, 2nd edition, (p.:79).

(١١)انظر: البغدادي، عبد اللطيف (٥٥٧هـ-٦٢٩هـ/١١٦١-١٢٣١م) **الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر**، تحقيق أحمد غسان سبانو (١٩٨٣م)، دار قتيبة، دمشق، (ص:٥٧-٥٨).

(١٢)انظر: سارتون، جورج، **تاريخ العلم**، مرجع سابق، (ج١/٤٣٠).

(١٣)انظر: المرجع السابق، (ج١/٢٠-٢١).

(١٤)انظر: ابن خلدون (٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، **المقدمة**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، بدون تاريخ نشر، (ص:٤٠٦).

(١٥)أنظر: العابد، بديع، دكتور (١٩٨٩م)، نشأة الفكر المعماري العربي الإسلامي وتطوره، **مجلة المدينة العربية**، منظمة المدن العربية، العدد ٣٩، صفر ١٤١٠/ سبتمبر ١٩٨٩م، الكويت، (ص:٦-٢٤). العابد، بديع، دكتور (٢٠٠٠م) ثقافة المعماري، **مجلة اتحاد الجامعات العربية للدراسات والبحوث الهندسية**، المجلد٧، العدد١، كلية الهندسة، جامعة بغداد، (ص:١-٤١). العابد، بديع، دكتور (٢٠٠٢)، الفكر المعماري عند إخوان الصفا، **مجلة اتحاد الجامعات العربية للدراسات والبحوث الهندسية**، المجلد٩، العدد٢، كلية الهندسة، جامعة بغداد، (ص:٢٥ - ٨٣). نشر أيضًا في **مجلة المدينة العربية**، منظمة المدن العربية، العدد ١٢٢، يناير/فبراير ٢٠٠٥م، (ص:٣٤-٤٨)، والعدد ١٢٦، أكتوبر/ نوفمبر/ سبتمبر ٢٠٠٥، (ص:٢٦-٤٥). العابد، بديع، دكتور (٢٠٠٧)، الفكر المعماري عند ابن خلدون، **كتاب أبحاث المؤتمر الثامن والعشرين**، معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، (ص:٤٥٣ - ٤٨٦). نشر أيضًا **بمجلة المدينة العربية**، منظمة المدن العربية، العدد ١٢٨، مارس/أبريل، ٢٠٠٦، والعدد ١٢٨، والعدد ١٢٩، مايو/ يونيو/ يوليو، ٢٠٠٦،(ص:٧٦-٨٨).

(١٦)أنظر: العابد، بديع، دكتور (٢٠٠٨م)، **الفكر المعماري العربي جذوره وأبعاده- التفسير التاريخي**، مرجع سابق.

(١٧)أنظر: المرجع السابق.

(١٨)انظر: العابد، بديع، دكتور (١٩٩٢م) **العمارة الاسلامية في التعليم المعماري**، مجلة المدينة العربية، منظمة المدن العربية، العدد ٤٩، يوليو / أغسطس، (ص:٨-١٥). العابد، بديع، دكتور، **ثقافة المعماري**، مرجع سابق.

(١٩)أنظر: جوثمان، رفائيل لوبث (٢٠٠٣م)، **العمارة المدجنة**، ترجمة علي ابراهيم منوفي، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، (ص:٩١-٩٣).

(٢٠)أنظر: المرجع السابق: (ص:٩٣).

(٢١)أنظر: المرجع السابق: (ص:٩٢).

(٢٢)أنظر: المرجع السابق: (ص: ٩٣-٩٨).

(٢٣)أنظر: المرجع السابق: (ص:١٠٢-١١٢).

(٢٤)أنظر: المرجع السابق: (ص:١١٢-١٢٢، ١٥٨-١٧٣).

(٢٥)أنظر: المرجع السابق: (ص:٥٣٩).

(26) See: Al-Hassani,S.,***1001 Inventions***, Ibid., (p.:79)
العابد، بديع، الفكر المعماري عند إخوان الصفا، مرجع سابق، (ص:٧٠).

(٢٧)أنظر: المرجعان السابقان.

(٢٨)انظر: العابد، بديع، **الفكر المعماري عند إخوان الصفا**، مرجع سابق (ص:٣٦-٣٧)

(29) See: Lefaivre, L. (1994), *Leon Batista Alberti, **Some New Facts of The Polyhedron***, Published in Design Book Review (DBR), No., 34, p.:12-17

(30) See: Al-Hassani, S., ***100 Inventions***, (p.:29).

(٣١)أنظر: بيرك، جيمس (١٩٩٤م)، **عندما تغير العالم**، ترجمة ليلى الجبالي، منشورات عالم المعرفة، العدد ١٨٥، الكويت، (ص:٩٧-١٠٧، ٣٨٥).

(٣٢)أنظر: المرجع السابق، (ص:١٠٠).

(٣٣)أنظر: المرجع: (ص: ١٠٢ -١٠٣، ٣٨٥-٣٨٦).

(٣٤)انظر: جوثمان، رفائيل لوبث، **العمارة المدجنة**، مرجع سابق، (ص:٤٨).

(35) See: Wren, C. (1750), ***Parnentalia* London**, reprinted in facsimile, (1965) by R.I.B.A.
بيرك، جيمس، **عندما تغير العالم**، مرجع سابق، (ص:٦٩)

(٣٦)أنظر: بدوي، عبد الرحمن (١٩٧٩م)، **دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي**، الطبعة الثالثة، وكالة المطبوعات، الكويت (ص:٤٦-٤٨).

(٣٧)أنظر: العابد، بديع، دكتور (٢٠٠٤م)، التخطيط العمراني لمدينة القدس وأثر قبة الصخرة على النسيج المعماري للمدن الايطالية، **المجلة الأردنية للعلوم التطبيقية، العلوم الطبيعية"**، جامعة العلوم التطبيقية، عمان، (ص:١-٤١).

(٣٨) أنظر: جوثمان، رفائيل لوبث، **العمارة المدجنة**، مرجع سابق، (ص:٩١-١٢٢) (١٨١-١٩٩).

(٣٩)أنظر: المرجع السابق، (ص:١٨١- ١٨٢).

(٤٠)أنظر: العابد، بديع، التخطيط العمراني لمدينة القدس، مرجع سابق.

(41) See: Gomez, A. P., (1994), **The Architecture of God**, Published in, *Design Book Review (DBR)*,No., 34, p.: 49 - 53.

(٤٢)أنظر: العابد، بديع، التخطيط العمراني لمدينة القدس، مرجع سابق، (ص:٣٢ - ٣٣).

(43) See: Harbison, R. (1994), **Imagining Cities**, published in *Design Book Review (DBR)*, No.,34,P:21-22 .

(٤٤)أنظر: العابد، بديع، دكتور (٢٠٠٨)، **المركز التقليدي لمدينة القدس بين التواصل والتقويض**، منشورات الدائرة الثقافية بأمانة عمان، عمان، (ص:٥٥ - ٧٠).

(45) See: Goodwin, G. (1971). ***A History of Ottoman Architecture***, The Johns Hopkins Press, USA, P: 381- 427.

(٤٦)مبارك، علي (١٩٦٩م)، **الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة**، ٧ أجزاء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (ج١/٢١٠-٢١٦).

(٤٧)أنظر: المرجع السابق، (ص:٢١١ - ٢١٤).

(٤٨)أنظر: العابد، بديع، **العمارة الاسلامية في التعليم المعماري**، مرجع سابق، (ص:٨ - ١٥).

(٤٩)أنظر: حسين، طه (١٩٢٥م)، **حديث الأربعاء**، ٣ أجزاء، الطبعة التاسعة، دار المعارف، القاهرة، (ج١/١٥). يوجد رأي مشابه لرأي طه حسين لمؤلف كتاب نهر الذهب. أنظر: الحلبي (الغزي) كامل البالي (١٩٣٣م)، **كتاب نهر الذهب في تاريخ حلب**،٣ أجزاء، دار القلم العربي بحلب، ١٩٩٩م، (ج١/٢١).

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449